الفصل التاسع عشر

كبرياء ناقص

العودة إلى عدن سيظل حلمٌ يرودها بعد كل ما حدث، دعت ربها في أعماقها ألا تتكرر المأساة وتعود لمدينتها ذات يوم.

لم تستيقظ من بحر أفكارها ورعب الأحداث التي مر بها شادي إلا على صوت طرقٍ بالباب، انتبهت، لم يتبق من الفجر إلا سويعات قليلة، أشارت لها مها بفتحه وهي تمسح دموعها، نهضت، لتجد الطارق عبد الكريم وربا، ولما فتحت له واستقبلته، ذهل حين وقعت عيناه عليها، وعلى وجهها الذي حوى وجهي الحياة معاً؛

بهجة الحياة وسعادتها بنضارة بشرتها وجمال عينها في جهة، وبؤس الحياة وشقائها بنيران الحرب التي التهمت الجهة الأخرى وكادت تطفئ ضياء عينها، فأغمقت لون بشرتها وجعدتها قبل أوانها، كانت تلك هي المرة الأولى التي يقابلها فيها، تذكر سريعاً لقاؤه الأول بشادي وسعيه لإيجاد سكنٍ مستقل بدل من السكن بأحد مراكز الإيواء، عرف منه أنها كانت مصابة إصابة بالغة؛ لكن لم يتوقع أن الإصابة ستكون في وجهها، الجزء الذي ستستقبل به كل الناس، أشفق في أعماقه عليها، لا شك في أن الأنظار المتلاطمة المشاعر لم ترحمها، شفقة اشمئزاز ونفور، هربت من الحرب لكن الحرب لم تهرب منها، عانقتها عناقاً شرساً لا انفلات لها منه.

تمالك انفعالات نفسه حين انتبه بأن شروده ونظرات الشفقة منه لم تفت عليها، فبدت نظراتها غير مبالية، لا شك في أنها قد آلفتها من غيره فلم ترتبك؛ بل ارتبك وهو يخفض رأسه ويقول:

-أعتذر للإزعاج يا ابنتي، أود الاطمئنان على شادي.

ابتعدت عن دربه وأفسحت له وهي تقول في ابتسامة باهتة لم تستطع بها إخفاء القلق التي افترسها على أخيها:

-تفضل سيدي.

دلف مع رُبا التي فتحت فاها في دهشة لغرابة شكل وجه ضياء والذي لم ترَ مثله من قبل، ولسان حالها يقول في أعماقها:

-من أنتِ؟ ماذا حدث معك؟ لِمَ وجهك هكذا؟

إلا أنها التزمت الصمت كما وعدت والدها، وأما ضياء فلم تكترث لها أيضاً أو ترتبك كما فعلت مع عبد الكريم رغم أن عيناها لم تبتعدا ولو للحظة عنها، ولم تنشغل ربا كثيراً بما حولها بقدر ما كانت تريد أن تشبع فضولها وهي تنقل عينيها في تضاريس إصابتها كأنما تحاول أن تحفظها أو تفسر ما تراه، شعرت بأنه فضولها طبيعي، فغرابة شكل وجهها التي شدت به زملائها وزميلاتها وصارت به محور أحاديثهم كيف لا يلفت انتباه طفلة؟

لم تقل كلمة وهي تنظر ناحية من عبد الكريم الذي بدا الحزن عليه وهو يقترب من سرير شادي والحزن على محياه رغم أنه تكفل بنفقة علاجه بسبب ما فعله طارق إلا أن إحساسه بالذنب كان كبيراً.

نظر لهما، فوجدها جالسة على كرسي إلى جواره، وقد أذبلت الدموع عينيها رغم أنها مسحتها قبل دخوله، أخفض رأسه وهو يقول لها معتذراً وبنبرة حزن:

-أعتذر حقاً لما أصاب شادي يا سيدتي.

نظرت إليه وهي تهز رأسها وتقول محاولة ألا تظهر ضعفها بنبرة صوتها:

-لا تعتذر رجاءً، هذا قضاء الله و قدره يا سيدي.

ابتسم وحاول طمأنتها وهو يقول:

-لا تقلقي على شادي، لقد سألت طبيبه الذي أجرى له العملية قبل قدومي وأخبرني بأنه سيكون بخير والكسر بعظم الكتف سيتحسن بإذن الله.

في تلك اللحظة، تحرك جسد شادي قليلاً وتغيرت تعابير وجهه، بدا بأنه يستفيق من غيبوبته، هرعتا إليه، ودنت مها منه أكثر في لهفة ومالت بجسدها وهي تقول:

-شادي، هل تسمعني؟ كيف تشعر الآن يا ولدي؟

فتح عينيه أخيراً، وتطلع بصمت في وجوه الجميع، وذكريات ما حدث تمر أمامه، ثم نظر إليها وقال في اقتضاب ووهن:

-أنا بخير.

لم تتمالك فرحتها، دمعت عيناها تنفست بارتياح وهي تقول:

-حمداً لله على سلامتك يا ولدي.

اقترب عبد الكريم ومسح على رأسه وقال مبتسماً له:

-الحمد لله أنك بخير.

حاول احتمال ألمه ليبتسم له ويقول ممتناً:

-شكرا لقدومك لأجلي يا سيدي، كيف حال طارق؟

وخز السؤال أعماقه بقوة وهو يدرك صفاء قلبه ونبل خلقه رغم تصرفات ولده التي عجز عن تغييرها، شعر باليأس، لن يتغير وأمه هي من تؤيده وتؤازره حتى لو كان على خطأ، وهو ليس ببعيد عن هذا التقصير، فهل هناك أمل في أن يتغير؟ أبعد تفكيره ليطمئن شادي:

-إنه بخير، لا تهتم بشيء إلا بنفسك.

ثم استأذن وخرج برفقة رُبا، و لما أغلق الباب، عقدت مها حاجبيها وقالت في حدة:

-لِم دافعت عن ذلك المتعجرف؟ عرفتُ كل شيء عنه من أختك، لو لم تساعده لما أصابك ما أصابك.

قالت لها ضياء في حزم:

-أمي، شادي لا يريد أن يرد إساءة طارق بمثلها، لذا حاول منع أهل مدينتنا من إيذائه.

ابتسم رغم ألمه ولم يعقب على قولها حين ذكرت ما جال بخاطره، هزت مها رأسها حين فهمت الأمر وقالت مبتسمة بعد أن هدأ غضبها:

-بارك الله فيكما.

ابتعدت ضياء عنهما وهي تقول:

-سأخبر الطبيب باستفاقتك.

وأسرعت تغادر الغرفة، وحين وصلت قرب مكتب التمريض ورأت عبد الكريم -ولا تزال رُبا برفقته- يتحدث مع طبيب شادي، اقتربت منهم وأخبرت الطبيب باستفاقته، فقال لها مبتسماً:

-الحمد لله، لقد أخبرني السيد عبد الكريم، وأنا ذاهب إليه الآن لأطمئن عليه.

و أسرع يحمل ملفاً ويغادر برفقة ممرض، بينما ألقت ضياء لعبد الكريم نظرات حازمة وهي تقول:

-أشكرك سيدي على مساعدتك لأخي.

ابتسم وقال:

-هذا أقل ما استطيع تقديمه رغم أني لم أكن أرغب في أن يؤول الحال لهذا.

-الحمد لله على كل حال، وأرجو منك ألا تثقل كاهلك بنفقات علاج أخي، فنحن سنتدبر ذلك وجزاك الله كل خير على ما قدمته لأجل العملية.

تفاجأ بقولها في البداية، تمثلت أمامه ملامح وجه شادي في وجهها أثناء لقائهما الأول حين طلب منه عدم دفع إيجار الشقة لأنها قديمة بالإضافة إلى أنه أصر على أن يكون مثل بقية المستأجرين، تذكرت عزة نفسه لحظتها وها هي تتمثل أمامه الآن، ابتسم وقال:

-لا ضير بأنك تشبهين شادي وعزة نفسه هذه، إن كنت تريدين ذلك فسأفعل، واعتبري ما سأقدمه لأجله بالمستشفى ديناً عليكم سداده بعد تحسن حالته.

دهشت من قراره، وشعرت بأن شادي قد احتل مكانة في نفسه، هزت رأسها وقالت مبتسمة:

-موافقة، لك ذلك سيدي.

-حفظك الله يا ابنتي.

ثم استأذنته لتعود لغرفة أخيها وهي تتعجب من المفارقة العجيبة بين عبد الكريم و طارق.

الفزع لم يكن قد فارقه بعد رغم استيقاظه الأول من غيبوبته، استيقظ مر أخرى من نومه وهب من سريره أثر رنين هاتفه المحمول الموضوع على الطاولة الصغيرة قربه، بنفس الاضطراب والخوف والارتجاف الذي نهض به أول مرة، نظر حوله مجدداً، لم يكن هناك أي شخص إلى جواره إلا أخته رُبا التي كانت نائمة على السرير المجاور، وشمس الضحى قد سطعت، لم يغادر كما كان يريد لا يزال بغرفة الترقيد بالمستشفى، لا شك في أن أمه لم تشأ إيقاظه حين استسلم للنوم وهي تريده أن يبقى، شعر بالانزعاج وتنهد بعمق ووضع يده مجدداً على صدره ليهدأ خوفه واضطرابه هو يتساءل:

-هل سيستمر رعب ما فعله أولئك الرجال به مغروسا في قلبه؟

أيقظه من شروده وفزعه رنين الهاتف الذي لم ينقطع، زفر والتقطه في ضيق، وتطلع في شاشته وقرأ اسم ناصر فيه، فتح الخط ثم قربه إلى أذنه وقال ضجراً:

- نعم ناصر.

أتاه صوته قلقاً:

- طارق، كيف حالك ؟ أقلقتنا عليك يا رجل، اتصلت ليلة الأمس فوجدت هاتفك مغلق.. اتصلت بالبيت فلم ألقَ جوابا.. لكني أحضرت رقم هاتف والدك من مكتبه وأخبرنا سهيل بما حدث، هل أنت بخير؟

رد بنفس النبرة :

- نعم أنا بخير.

قال في ارتياح:

-الحمد لله، سآتي أنا و...

عقد حاجبيه وقاطعه في انفعال:

-ما من داع لمجيئكم لأني سأغادر المستشفى بعد لحظات، بإمكانكم زيارتي بالمنزل في المساء.

رد عليه ليهدئه:

-حسناً حسناً لا تنفعل، سأفعل ذلك.

ولما انتهى الاتصال أمسك بهاتفه بقوة ساخطاً وهو يقول:

-تباً لهم، من يظنون أنفسهم.

ثم انتبه للباب يفتح، ورأى والديه يدخلان الغرفة وبرفقتهما طبيبه وممرض، قال الطبيب مبتسماً:

-الحمد لله أنك بخير.

لكن طارق لم يبادله الابتسامة، بل ظل العبوس يرتسم على ملامح وجهه وهو يرد في حدة:

-أريد الخروج من هنا.

تفاجئ الطبيب وعبد الكريم من قوله، بينما ارتبكت عائشة، تمنت لو يستطيعان إيقافه ومنعه تطلعت إليهم في قلق، ورأت الطبيب يجيبه حازماً:

-لا يمكنك ذلك، يجب أن تبقى، الضربة برأسك قوية.

رد وهو ينهض متعنتاً من سريره، قائلاً في عصبية:

-أنا بخير، سأرتاح في منزلي.

قال عبد الكريم :

-ما هذا الذي تقوله يا طارق؟ طبيبك أدرى بحالتك، لا يجب أن تغادر.

عقد حاجبيه وقال:

-لا أريد البقاء هنا، وأنا أتحمل تبعات قراري هذا.

شعر عبد الكريم بالضيق من تعنته، قال للطبيب:

-حسناً سيدي، اسمح له بالمغادرة..

عقد الطبيب حاجبيه، وقال:

-يجب أن يوقع تأكيداً على رغبته في ذلك لنخلي مسؤوليتنا عما قد يحدث بعدها.

قال طارق:

-سأفعل، لا مانع لدي.

فناوله الممرض قلماً وكتب تأكيد رغبته بالمغادر بالملف، واحتقن وجه والده غضباً، بينما زاد القلق على وجه عائشة وتحسرت على ما حدث، ثم خرج الطبيب والممرض ،قال عبد الكريم لزوجته:

-اسبقوني إلى السيارة ريثما أنهي إجراءات الخروج.

أطاعته، وقامت بترتيب أشياءهم القليلة التي أحضروها معهم وأيقظت رُبا التي ظلت جالسة بعض الوقت تعالج النوم، بينما ناولته قميصه الداخلي وسترته، فجلس على طرف السرير وارتدى القميص ثم ارتدى السترة دون أن يغلق أزرارها، وحين استعدوا حملت الحقيبة، تقدمتهم رُبا لتغادر الغرفة ثم تبعتها والتفتت لطارق الذي لم يكن يحمل إلا جسده، تأملته وهو يسير مترنحاً ويجز على أسنانه محاولاً احتمال ألمه حتى خرج من الغرفة، اقترب من الجدار وسار مستنداً إليه، كان يشعر بالألم في كل جسده مع كل خطوة يخطوها، لم تفتها أنه ألم مكموتة حاول مداراتها عنه حين لاحظ مراقبتها لخطواته، قالت له في رجاء:

-لِم هذا التعنت على حساب صحتك يا بني؟ إنك تتألم، يجب أن تعود إلى سريرك، لا نزال هنا.

رد حازماً وهو يخفض رأسه ويعالج ألمه:

-لن أسمح لهم بأن يهنئوا بفعلتهم هذه بي أبداً.

وجمت من قوله للحظات، ثم قالت في انفعال:

-أتريد أن تتحدى وأنت في هذه الحالة، ثم أن والدك قال سيسوي الأمر معهم، اهتم بنفسك ولا شأن لك بغيرك، المهم سلامتك.

انزعج من قولها فرفع رأسه ليرد، إلا أنه لمح ضياء تدلف قسم الترقيد حاملة كيساً صغيراً بيدها، بينما عادت عائشة تقول:

-سـأخبره بأ...

قاطعها وهو يقول بحزم أكثر:

-أمي، قلت لك لن أعود أبداً، اسبقيني أنتِ ورُبا ولا تقلقي علي، أنا بخير وسألحق بكما.

قالت في حزم:

-بل سأرافقك.

حاولت أن تمسك بذراعه فجذبها وهو يرد في عصبية:

-دعيني، سأسير بمفردي.

زفرت في ضيق وهي تقول في حدة:

-حسناً، افعل ما يحلو لك، لقد أعييتني.

وأسرعت تلحق برُبا وسبقتاه، وانتبهت رُبا على ضياء فتعلق بصرها بها حتى وصلت أمها إليها، أمسكت بيدها لتغادرا معاً، بينما ظلت تتبعها ببصرها حتى رأتها تقف أمام طارق الذي أبعد يده عن الجدار ووقف معتدلاً ليكون قبالتها قبل أن تخرج مع أمها من القسم ويختفيا من أمامها.

قال طارق في ابتسامة:

-أهلاً ضياء، يا لهذه المصادفة التي جمعتنا هنا.

عقدت حاجبيها في ضيق وهي تتأمل وجهه المتلون بالكدمات والعصابة الملفوفة حول رأسه، وجسده الذي لا يكاد يقف إلا مرغماً، ومع ذلك لا تزال هذه الابتسامة الساخرة على وجهه!

قال قاطعاً بحر تفكيرها:

-لقد نسيت حقاً ما فعله أولئك الرجال بشقيقك أيضاً، يا للأسف، لولا فعلتهم لما كنا هنا.

زوت ما بين حاجبيها في حدة ردت غاضبة:

-لولا فعلتهم أم لولا لسانك؟

اتسعت ابتسامته التي تحولت إلى ضحكة عالية جعلت جسده يهتز وهو يقاوم الألم، لفت بها من كان موجوداً بالممر، ثم مال برأسه وقال بسخرية:

-لساني!! آه، كم مرت يجب أن أنسى بأن الحقيقة مرَّة ولا تعجب أحداً.

-الظاهر بأنك لم تتعلم شيئاً مما حدث معك.

اقترب منها وهو لا يزال يسير مترنحاً دون أن يستند للجدار، ماضيا في طريقه حتى صار بمحاذاتها فوقف وقال بصوت أقرب إلى همس:

-أتعلمين ؟! لا تفرحي كثيراً أنتِ وأولئك الرجال، أنا سأغادر هذا المكان، فليس طارق من يقف عن المضي في طريقه بسبب مجموعة أمثالكم.

ومضى مبتعداً في طريقه وهو يلوح بيده ودون أن يلتفت إليها ويقول:

-أراكِ غداً في الكلية، إن حضرتِ..

احتقن وجهها غضباً وهي تقول في نفسها:

-تباً لك و لأمثالك، تكابر حتى وأنت في أسوأ حال! ليتك...

ثم قطعت عبارتها وهدأت من غضبها، واستعاذت بالله من الأفكار التي طرقت رأسها، مهما كان من سوء تصرفه وتكبره فلا يجب عليها أن تتمنى الشر له، فالكِبر مطب كبير يعترض طريق صاحبه نحو الدرب السوي، وآفة روحية عسيرة الإزالة، شفرة تزداد تعقيداً كلما طال أمدها فتتعاظم مع الزمن، وتوقف حدود التفكير عند نزوة العلو مهما تكن المواقف التي يمر بها صاحبها، ليخفي بها مظاهر نقصه، وتجعله ينظر لمقتٍ لبقية بني جنسه، تعمي بصيرته لتحدد له وجهة واحدة فقط، وهي نحو مآربه الشخصية.

تجاهلت ما حدث ومضت في طريقها نحو غرفة شقيقها، ولما دخلت وجدت الطبيب عنده وبرفقته الممرض وقد بدا بأنه انتهى من فحص شادي الذي وجدته جالساً على السرير، فقال له الطبيب مبتسماً:

-الحمد لله، اصطدام السيارة بك لم يكن عنيفاً جداً وإلا كان الكسر سيئاً وإعادة عظم العضد صعبة، أتوقع بعد شهر ستتحسن إصابتك كثيراً بإذن الله، يلزمك الراحة الآن إلى ذلك الحين

هز رأسه بتثاقل وصمت، بينما سألت ضياء الطبيب قائلة:

-وكم سيبقى هنا؟

ظل يدون في الملف دون أن ينظر إليها وقال:

-أسبوع حتى أتأكد من عدم حصول أي التهاب بموضع الجراحة.

-شكرا لك سيدي.

ابتسم وغادر الغرفة، بينما استلقى شادي على السرير وساعدته مها، ثم قالت:

-الحمد لله الذي أنجاك، كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ من هذه لو كانت السيارة تتحرك بجنون..

-الحمد لله..

قالها شادي وهو يتطلع إلى السقف بصمت و وجوم، البقاء أسبوعين هنا يعني أن يتوقف عن عمله، ولا يدري كيف ستكون حالته بعد ذلك، من سيدبر حال أهله وهو مصاب عاجز؟

هل عليه الآن أن يشعر بالندم لتدخله ومحاولته إنقاذه لطارق رغم الإساءة التي نالها منه؟

وهل عليه أن يندم على فعل الخير حاول تقديمه؟

انتبه من شروده على صوت أمه وهي تقول لتطمئنه:

-بني، لا تقلق، لقد تكفل السيد عبد الكريم بعلاجك واعتبره ديناً علينا لحين تماثلك للشفاء.

نظر إليها وابتسم ابتسامة صغيرة لها وهو يقول:

-الحمد لله، إنه رجل شهم على خلاف ابنه، جزاه الله كل خير.

ابتسمت ظناً منها بأنها قد أراحت قلبه؛ لكن ضياء التي ولجت تضحية شادي في أعماقها منذ لحظة بدأ الحرب والنزوح وإلى الآن فهمت ما دار في خلده، لم يكن يفكر في نفسه وعلاج إصابته؛ بل بهما، أخاها الذي بذل الكثير لتستقر أمورهم في مدينة غير مدينتهم كيف لا يقلق عليهم في مرضه الآن؟

رغم تظاهره برغبته في النوم بعد كلماته لها إلا أنه لم يستطع أن يخفي ذلك عن ضياء، فوضعت الكيس على الطاولة وأمسكت بيده، ففتح عينيه ورآها تبتسم له وهي تربت على كفه وتقول:

-كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله، فلا تشغل بالك، المهم أن تكون بخير.

ابتسم لها وقال:

-وعليك غداً الذهاب لكليتك، أمي موجودة هنا.

-كما تريد، سأفعل بإذن الله.

وعاد لغفوته، في اللحظة التي رنَّ فيها هاتفها المحمول، فابتعدت عن سريره ثم ضغطت زره وهي تقول:

-السلام عليكم..

أتاها صوت سحر وهي تقول:

-وعليكم السلام، أود إبلاغك بأني لن أستطيع زيارتك اليوم، لدينا ضيوف اليوم والأمر كان مفاجئاً ليلة أمس ولم أستطع إخبارك.

أسرعت لحظتها تغادر الغرفة وهي تقول:

-لا عليك، فأنا كنت سأتصل بك وأعتذر لأني لست موجودة في البيت اليوم.

ردت في نبرة قلق:

-لِمَ؟ هل حدث شيء؟

مضت تحكي لها ما حدث، فقالت:

-الحمد لله على سلامة أخيك.

-الحمد لله، شكرا لك..

-ليتني أستطيع زيارتك بالمستشفى، والداي لن يسمحا لي بذلك..

-لا عليك، سنلتقي غداً بالكلية..

-في انتظارك إذن..

ثم قالت بحزم:

-سحر أريد منك خدمة.

-تفضلي..

-أريد البحث عن عمل، ماذا أفعل؟ وكيف سأجده؟.

فردت في ذهول:

-نعم!!

*****